المحكم والمتشابه في القرآن

أ.د/ يوسف بن عبد العزيز بن عبد الله الشبل
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١-١٤٣٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

* أولاً: المؤلفات في المحكم والمتشابه :

من أشهر المصادر التي ألفت في المحكم والمتشابه في القرآن الكريم:

١- الإكليل في المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ).
٢- البرهان في متشابه القرآن للكرماني (ت بعد ٥٠٠هـ).
٣- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. عبد الرحمن المطرودي.
٤- المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. إبراهيم مصطفى.
٥- معاني المحكم والمتشابه في القرآن الكريم د. أحمد حسن فرحات.
٦- الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية (تعرض فيها للمحكم والمتشابه).
٧- كتب أصول الفقه عامة ومن أهمها الموافقات للشاطبي (ت٧٩٠هـ)
٨- كتب علوم القرآن عامة، ومن أهمها البرهان والإتقان والمناهل ومباحث الشيخ مناع ولمحات د. الصباغ وغيرها.

* ثانياً: أهمية موضوع المحكم والمتشابه:

١- أن هذا الموضوع، وهو من موضوعات علوم القرآن، في غاية من الأهمية، حيث إنه يحتاج إلى علم راسخ القدم قال تعالى عند الكلام عن المحكم والمتشابه في آية آل عمران: (**والراسخون في العلم يقولون آمنا به**)، وإلى دقة وعناية تامة وثبات في الأمور.

٢- أن هذا الموضوع من الموضوعات التي لها صلة بالعقيدة، والزلل فيه يؤدي إلى الوقوع في هاوية سحيقة، قال تعالى عند الكلام عن المحكم والمتشابه في آية آل عمران: (**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**) وهذا ما وقع لكثير ممن كتب في هذا الموضوع، وعلى رأس هؤلاء الذين لهم عناية في علوم القرآن كالزركشي في البرهان فقد تعرض للمحكم والمتشابه في النوع السابع والثلاثين، وهو في حكم الآيات المتشابهات الواردة في الصفات، وكذلك السيوطي في الإتقان في النوع الثالث والأربعين في المحكم والمتشابه، وقد ذكر تحته فصلاً في المتشابه في آيات الصفات، ثم جاء بعدهم الزرقاني في مناهل العرفان في المبحث الخامس عشر في محكم القرآن ومتشابهه حيث تكلم فيه عن متشابه الصفات، فكان أشد

وأنكى ممن سبقه، بل كان أكثر تخبطاً في هذا الموضوع، ومن غير بصيرة ودراية بالعقيدة الصحيحة التي تحمي صاحبها من الزلل والبعد عن الحق، وخاصة في مسائل الأسماء والصفات، ومثله صبحي الصالح في مباحثه في الفصل الثامن في علم المحكم والمتشابه.

فهؤلاء ومن مثلهم – عفا الله عنّا وعنهم– ادخلوا آيات الصفات في المتشابه من القرآن، ثُمَّ ساروا على مذهب الأشاعرة المؤولين، وحكوا كلامهم، وجعلوه المذهب الصحيح، ونسبوه إلى السلف وهو أبعد ما يكون من مذهب سلف أهل السنة والجماعة.

يقول الزرقاني في مناهله: (لقد أسرف بعض الناس في هذا العصر فخاضوا في متشابه الصفات بغير حق وأتوا في حديثهم عنها وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله ولهم فيها كلمات غامضة تحتمل التشبيه والتنزيه وتحتمل الكفر والإيمان حتى باتت هذه الكلمات نفسها من المتشابهات ومن المؤسف أنهم يواجهون العامة وأشباههم بهذا ومن المحزن أنهم ينسبون ما يقولون إلى سلفنا الصالح ويخيلون إلى الناس أنهم سلفيون من ذلك قولهم إن الله تعالى يشار إليه بالإشارة الحسية وله من الجهات الست جهة الفوق ويقولون إنه استوى على عرشه بذاته استواء حقيقا بمعنى أنه استقر فوقه استقرارا حقيقيا غير أنهم يعودون فيقولون ليس كاستقرارنا وليس على ما نعرف وهكذا يتناولون أمثال هذه الآية وليس لهم مستند فيما نعلم إلا التشبث بالظواهر ولقد تجلى لك مذهب السلف والخلف فلا نطيل بإعادته ولقد علمت أن حمل المتشابهات في الصفات على ظواهرها مع القول بأنها باقية على حقيقتها ليس رأيا لأحد من المسلمين وإنما هو رأي لبعض أصحاب الأديان الأخرى كاليهود والنصارى) أهـ.

وسيأتي بيان الحق في هذا وتفنيد كل ما ذكره وادّعاه مما هو أبعد ما يكون عن منهج السلف وما عليه الفرقة الناجية.

٣– أن هذا الموضوع أيضاً من الموضوعات المهمة المعاصرة وخاصة في هذه السنوات الأخيرة التي ظهر فيها الخوض في أحكام الشريعة وبدأ يتحدث فيها من شاء استدلالاً بالمتشابه والإعراض عن المحكم، ومحاولة تخريج النصوص المحكمة بأي نوع من أنواع التخريج بقصد إبعادها عن ساحة الحكم بين الناس، ومن ثم الاستدلال بالأدلة المتشابهة وإشاعة الأفكار المنحرفة في أوساط المجتمع، ومن أظهر الأمثلة على ذلك عرض المسائل الخلافية والاستدلال بالنصوص المتشابه التي لها أكثر من معنى كمسائل الاختلاط والحجاب والخلوة والسفر بلا محرم ونحوها، وهي مسائل تعتبر من المسلّمات التي لا ينازع فيها مؤمن ذو بصيرة.

ثم إن هؤلاء المتبعين المتشابه، منهم المستقل ومنهم المستكثر وغرضهم كما نطقت به الآية (**ابتغاء الفتنة**)، أي: صد الناس عن دين الله؛ لأن من الفتنة الصد عن دين الله،

(**وابتغاء تأويله**) أي: طلب تأويله لما يريدون، فهم يفسرونه على مرادهم، لا على مراد الله تعالى

ثالثاً: معنى المحكم في اللغة:

تقول العرب: حكمت وأحكمت بمعنى منعت ورددت، ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكماً؛ لأنه يمنع الظالم من الظلم، ومنه سميت حكمة اللجام لأنها ترد الدابة.

ويقال: حكمت السفيه وأحكمته: إذا أخذت على يديه، ومنه الحكمة: لأنها تمنع صاحبها عما لا يليق، وإحكام الشيء: إتقانه، والمحكم: المتقن.

فإحكام الكلام: إتقانه بتمييز الصدق من الكذب في أخباره، والرشد من الغي في أوامره، والمحكم منه ما كان كذلك.

* الإحكام العام

وصف الله كتابه الجليل القرآن الكريم بأنه محكم فقال: {**الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**},وقال: {**الر تلك آيات الكتاب الحكيم**},وقال: {**الم تلك آيات الكتاب الحكيم** }.

وعلى هذا فالقرآن كله محكم: أي أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وأنه منظم رصين متقن لا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي كأنه بناء مشيد محكم، وهذا هو الإحكام العام.

رابعاً: معنى المتشابه في اللغة:

قال الراغب: الشبه والشبه والشبيه: حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية، كاللون والطعم ، والشبهة: هو أن لا يتميز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه؛ عيناً كان أو معنى، قال تعالى: {**وأتوا به متشابها**} ،أي: يشبه بعضه بعضا لونا لا طعما وحقيقة،وقيل: متماثلا في الكمال والجودة،أهـ

وقوله: {**مشتبها وغير متشابه**}، وقوله: {**متشابهاً**} ،أي متقارباً، وقوله: {**إن البقر تشابه علينا**} ،أي: التبس واشتبه ،وقوله: {**تشابهت قلوبهم**}، أي: في الجهالة والضلال.

والمتشابه مأخوذ من التشابه: وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر، والشبهة: هي ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه، وتشابه الكلام: هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا.

التشابه العام:

وصف الله جل جلاله كتابه القرآن الكريم كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال: {**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني**}، أي: أنه يشبه بعضه بعضا في الكمال والجودة، ويصدق بعضه بعضا في المعنى ويماثله.

قال السعدي: "متشابها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم" أهـ. وهذا هو التشابه العام.

خامساً: الجمع بين كون القرآن محكماً ومتشابهاً:

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه العام المتقدم لا ينافي الآخر، فالقرآن كله محكم بمعنى الإتقان، وهو متماثل ويصدق بعضه بعضا، فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر، وإنما يأمر به أو بنظيره، وكذلك الشأن في نواهيه وأخباره، فلا تضاد فيه ولا اختلاف: {**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**}.

سادساً: معنى المحكم والمتشابه الخاص وأقوال العلماء فيهما:

قال تعالى: { **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** }،

ومعنى: «**آيات محكمات**» أي: متقنات في الدلالة والأحكام والأخبار، فأخبارها وأحكامها متقنة معلومة ليس فيها إشكال. ومعنى: {**وأخر متشابهات**}، يعني: أن أحكامها غير واضحة، وأخبارها غير واضحة. فصار المحكم هو المتقن في الدلالة سواء كان خبرًا أو حكمًا والمتشابه هو الذي دلالته غير واضحة سواء كان خبرًا أو حكمًا.

وقوله في وصف الآيات المحكمات: بـ (**هن أم الكتاب**) بيان لحالها ليتبادر إلى الذهن أول ما يتبادر أنه يرد المتشابهات إلى المحكمات لأنها أم، وأم الشيء مرجعه وأصله، فهذه المحكمات يجب أن ترد إليها المتشابهات. أما موقف الناس من الآيات المتشابهات فقد انقسموا قسمين:

١- قسم يتبعون المتشابه ويضعونه أمام الناس ويعرضونه عليهم فيقولون: كيف كذا وكيف كذا ؟ أي: فهؤلاء في قلوبهم ميل عن الحق، فهم لا يريدون الحق، وإنما يتبعون المتشابه، وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (**هو الذي أنزل عليك الكتاب إلى قوله أولوا الألباب**)، قالت: قال

رسول الله ﷺ:(**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم**)، رواه البخاري.

٢- وقسم آخر يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، فإذا كان من عند ربنا فلا يمكن أن يتناقض، ولا يمكن أن يتخالف، بل هو متحد متفق، فيرد المتشابه منه إلى المحكم، ويكون جميعه محكمًا. وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين عندهم من العلم ما يتمكنون به أن يجمعوا بين الآيات المتشابهة، وأن يعرفوا معناها. فهذا هو الإحكام الخاص والتشابه الخاص، وكل منهما يقابل الآخر، كما أن الراسخين في العلم يقابلون الذين في قلوبهم زيغ، وقد حُمل هذا التقابل على تعريف كل من المحكم والمتشابه، فوقع الخلاف فيهما وفي معناهما، وكثرت آراء أهل العلم في هذا الموضوع وتعددت وجهات نظرهم، وأهمها:

أ- المحكم: ما عرف المراد منه وما كانت دلالته واضحة، والمتشابه: هو الخفي وهو ما استأثر الله بعلمه كالحقائق الغيبية في القرآن، وهذا رأي القرطبي.

ب- المحكم: ما لا يحتمل إلا وجها واحدا كالنص، والمتشابه: ما احتمل أوجها متعددة كالألفاظ المشتركة.

ج- المحكم: ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه: ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره.

وهناك آراء لأهل العلم كثيرة إذا تأملناها وجدناها لا تكاد تخرج عن هذه الآراء الثلاثة المذكورة بل تدور في فلكها كما أننا لا نجد بين هذه الآراء الثلاثة تناقضا ولا تعارضا بل نلاحظ أن بينها تشابها وتقاربا.

سابعًا:إذا أوهم التعارض بين المحكم والمتشابه فما الحكم ؟

المحكم الخاص والمتشابه الخاص هما من باب التقابل، أي: أن المحكم يقابل المتشابه، وبعبارة أخرى: المحكم بمثابة الأصل، والمتشابه بمثابة الفرع، يقول القرطبي: " فالمحكم أبداً أصل تُردُّ إليه الفروع، والمتشابه هو الفرع "؛ فإذا اشتبه الأمر ولم يتضح الفهم وأوهم التعارض بين المحكم والمتشابه فالقاعدة في درء التعارض وإزالة الاشتباه هو رد المتشابه إلى المحكم، جاء ابنَ عباس رضي الله عنهما رجل فقال: رأيت أشياء تختلف عليَّ من القرآن، فقال ابن عباس : ما هو؟ أشك؟ قال: ليس بشك، ولكنه اختلاف، قال: هات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمع الله يقول:{ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** } (الأنعام:٢٣) وقال:{ **ولا يكتمون الله حديثًا** } (النساء:٤٢) فقد كتموا؛ وذكر له أشياء أخر اختلفت عليه؛ وقد أجاب ابن عباس رضي الله عنه إشكالات السائل، ثم قال له: فما

اختلف عليك من القرآن فهو يشبه ما ذكرتُ لك، وإن الله لم يُنَّزل شيئًا إلا وقد أصاب الذي أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون،أهـ.

وأوضح أهل العلم ما بينه ابن عباس رضي الله عنه لما سأله الرجل وهو أن ألسنتهم تقول والله ربنا ما كنا مشركين فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فكتمُ الحق باعتبار اللسان وعدمه باعتبار الأيدي والأرجل، وقيل بتعدد الأماكن فيكتمون في وقت ولا يكتمون في وقت آخر والعلم عند الله.

ينظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي

ثامناً:أنواع المحكم في القرآن:

المحكم درجات في وضوحه، ومن أجل ذلك يتفاوت الناس في استيعابه كله وفهمه والإحاطة بمعانيه ومدلولاته، وهناك آيات واضحات يستطيع كل إنسان أن يفهمها إذا كان عارفا باللغة العربية، وهناك آيات أقل وضوحاً فقد لا يدرك مدلولها إلا العلماء الواقفون على أسرار العربية، القادرون على الإفادة من قواعد الاستنباط وأصول الفقه وقواعد البلاغة، وهذا قد يدخل في المتشابه لكونه خافياً عن بعض الناس. وعلى هذا لا نستطيع تحديد المحكم تحديداً دقيقاً لكون المحكم ومعرفته أمراً نسبياً، والمتشابه أمر نسبي، فقد يكون النص محكماً عند أناس وغير محكم عند آخرين، ومن خلال ما تقدم في عرض الآراء في الإحكام الخاص تبين لنا أن المحكم هو ما عرف المراد منه وما كانت دلالته واضحة، أو ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، أو هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان.

وقد ورد عن ابن عباس ﷺ أنه قال: التفسير على أربعة أوجه:

تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء

وتفسير لا يعلمه إلا الله، فمن ادعى علمه فهو كاذب.

فالمحكم هو الواضح البين وهو درجات متفاوته، وهو أغلب آيات القرآن الكريم وهو الأصل والمتشابه فرع منه، ولذلك يجب رد المتشابه إليه، فكل لفظ تدركه وتعرف معناه ومراد الله منه فهو محكم واضح الدلالة ولذلك يطلق أحيانا لفظ المحكم على الآية الناسخة فيقال هذه آية محكمة غير منسوخة لكونها ظاهرة الدلالة.

تاسعاً: أنواع المتشابه في القرآن:

وكما ذكرنا أن المحكم درجات في وضوحه وبيانه فكذلك المتشابه درجات في غموضه ، وكما أننا لا نستطيع تحديد المحكم تحديداً دقيقاً لكون المحكم ومعرفته أمراً نسبياً فكذلك المتشابه لا نستطيع تحديد المتشابه تحديداً دقيقاً لكونه أمراً نسبياً يرجع إلى الناظر نفسه لا إلى الأمر نفسه ،فالناظر إما مقصر في فهمه أو متبع لهواه مبتغياً بذلك الفتنة ،وقد يكون النص متشابهاً عند أناس وغير متشابه عند آخرين، ومن خلال ما تقدم في عرض الآراء في المتشابه الخاص تبين لنا أن المتشابه ما استأثر الله بعلمه كالحقائق الغيبية في القرآن ، أو ما احتمل أوجها متعددة كالألفاظ المشتركة ،أو ما لا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره ، وعليه فقد تنوع المتشابه إلى أنواع متعددة منها:

١- **متشابه من حيث الألفاظ، أي: أن سبب غموضه اللفظ،كالألفاظ الغريبة،** مثل الأب فقد جاء عن عمر ﷺ أنه قرأ: {**وفاكهة وأباً**} فقال: ما الأب؟ ثم قال: ما كلفنا أو قال: ما أمرنا بهذا، وورد أيضاً عن أبي بكر ﷺ في هذا المعنى وهو أنه قرأ: { **وفاكهة وأباً**} فقيل ما الأب؟ فقيل كذا وكذا فقال أبو بكر إن هذا لهو التكلف، أي أرض تقلني أو أي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم"، ومثله التخوف فقد ورد أن عمر ﷺ قرأ على المنبر قوله تعالى (**أو يأخذهم على تخوف**) ثم قال ما تقولون فيها ؟ أي في معنى التخوف فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك في كلامها؟ قال: نعم، قال أبو كبير الهذلي:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر"عليكم بديوانكم لا تضلوا هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم".

وورد عن ابن عباس أنه قال ما أدري ما الأواه وما الغسلين ؟ يعني قوله: (**إن إبراهيم لأواه حليم**)وقوله: (**ولا طعام إلا من غسلين**).

وقد يكون سبب غموض اللفظ،كونه من الألفاظ المشتركة كالقرء يطلق على الحيض وعلى الطهر ، وعسعس بمعنى أقبل وأدبر، والشفق يكون للبياض وللحمرة والتواب هو الله (**إن الله كان تواباً رحيماً**)، ويوصف به العبد ، (**إن الله يحب التوابين**).

وقد يكون سبب الغموض تركيب اللفظ بسبب الاختصار والحذف كقوله:(**فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر**)، أي: فأفطر وقوله:(**وإن من قرية إلا نحن مهلكوها**) أي:

ظالمة، وهذا من التفسير الذي يعلمه العلماء، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه المتقدم..

٢- **متشابه من حيث المعنى،** وهو الأشياء التي لا يعلم كنهها وحقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى كحقائق الأمور الغيبية وكيفياتها من أمور الآخرة والجنة والنار وأسماء الله وصفاته، وهذا هو التفسير الذي لا يعلمه إلا الله، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه.

٣- **متشابه من حيث اللفظ والمعنى،** وينقسم إلى أقسام:

الأول: ما كان التشابه فيه من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو: {**فاقتلوا المشركين**}، فهو عام من حيث الزمان مخصوص بالأشهر الحرم ابتداء لا دفاعاً ، وعام من حيث المكان مخصوص بالحرم ، وعام في الأشخاص مخصوص بأهل الذمة أو المعاهدين والمستأمنين، والنساء والشيوخ والأطفال.

الثاني: ما كان التشابه فيه من جهة الكيفية كالوجوب والندب، نحو: {**فانكحوا ما طاب لكم من النساء**}، وذلك أن دلالة الأمر في الآية تحتمل الوجوب وتحتمل الندب وتحتمل الإباحة أيضاً ، فيستدل به على أن النكاح واجب أو مندوب أو مباح.

الثالث: ما كان التشابه فيه من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، نحو: {**فقدموا بين يدي نجواكم صدقة**} ،وقوله: {**أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات**}، فبينهما فترة زمنية، وقد يكون الأول ناسخاً والثاني منسوخاً، أو العكس.

الرابع: ما كان التشابه فيه من جهة الأمكنة والمواطن التي نزلت فيها، نحو: {**وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها**}، فإن من لا يعرف عادة أهل الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيوت من ظهورها، وقيل كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وقد ذكر هذه الأقسام الأربعة الراغب في مفرداته.

فالمتشابه هو الذي لا تتضح دلالته ودرجات غموضه مختلفة اختلافاً نسبياً من شخص لآخر قوة وضعفاً، والواجب في مثل هذه الحال رد المتشابه إلى المحكم، فكل لفظ غمض ولم يتضح معناه أو كانت دلالته مترددة بين أمرين أو أكثر فيجب الوقوف عنده ورده إلى العلم وإلى الراسخين منهم.

عاشراً: منشأ الاختلاف في المتشابه في القرآن الكريم:

منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في الوقف في قوله تعالى: {**والراسخون في العلم**} هل هو مبتدأ خبره {**يقولون**} والواو للاستئناف، والوقف على قوله: {**وما يعلم تأويله إلا الله**}؟ أو هو معطوف و{**يقولون**}حال، والوقف على قوله: {**والراسخون في العلم**}.

الرأي الأول "الاستئناف" وذهب إليه طائفة منهم أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، مستدلين بما يلي:

١- ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ: "**وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به**".

٢- قراءة ابن مسعود: "**وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به**".

٣- ما دلت عليه الآية من ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة.

٤- ما رواه البخاري عن عائشة قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: {**هو الذي أنزل عليك الكتاب**} ... إلى قوله تعالى: {**أولو الألباب**}, قال رسول الله ﷺ: " **فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم** ".

الرأي الثاني "العطف" وذهب إليه طائفة على رأسهم مجاهد، فقد أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله: {**والراسخون في العلم**} قال: "يعلمون تأويله ويقولون: آمنا به". واختار هذا القول النووي، فقال في شرح مسلم: إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده، بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل:

بالرجوع إلى معنى "التأويل" يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين، فإن لفظ التأويل ورد لثلاثة معان:

الأول: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين.

الثاني: التأويل بمعنى التفسير، فهو الكلام الذي يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه.

الثالث: التأويل: هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفات، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفسه ما يكون في اليوم الآخر. وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه

وسجوده: "**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**" يتأول القرآن". تعني قوله تعالى: {**فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا**}.

فالذين يقولون بالوقف على قوله: {**وما يعلم تأويله إلا الله**}، ويجعلون: {**والراسخون في العلم**}، استئنافا، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث، أي الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله.

والذين يقولون بالوقف على قوله :{**والراسخون في العلم**} على أن الواو للعطف وليست للاستئناف، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني وهو التفسير، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري فيه: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره.

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين في النهاية، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التأويل.

ففي القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه في الدنيا، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه في اللفظ والمعنى الكلي إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها، وأما نفس الحقيقة فهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله. ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى: {**الرحمن على العرش استوى**}، قالوا: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"، وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك قبله: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، ومن الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا الإيمان".

فبين أن الاستواء معلوم، وأن كيفية ذلك مجهولة.

وكذلك الشأن بالنسبة إلى إخبار الله عن اليوم الآخر، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة. ففي الآخرة ميزان، وجنة ونار، وفي الجنة: {**أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى**}، وذلك نعلمه ونؤمن به، وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد، وما في الآخرة يمتاز عما في الدنيا، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا، وهي من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

حادي عشر:المنهج الشرعي في آيات الصفات

أخبر الله تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، وهن بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو على بعضهم،

فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ولهذا قال تعالى: { **هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب** } أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه { **وأخر متشابهات** }أي: يلتبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالحق في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فبهذه الطريقة يصدق بعضه بعضا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، فهذا هو المنهج السليم والطريق القويم في النصوص المتشابه عموماً وردها إلى المحكم.

أما آيات الصفات فهل يجوز أن يقال إنها من المتشابه؟

آيات الصفات كثير من الناس يطلق عليها اسم المتشابه، وهذا من جهة صحيح ومن جهة خطأ، فكما بيَّن الإمام مالك بن أنس بقوله: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب"؛ فقوله: الاستواء غير مجهول يدل على أن معناه ليس من المتشابه؛ بل هو معلوم ومعروف عند العرب.. والكيف غير معقول وذلك يدل على عجز البشر عن إدراكه، وما استأثر الله بعلمه يسمى متشابهاً، فهو بالنسبة إلى الصفة غير متشابه، وبالنسبة إلى كيفية الاتصاف به متشابه، لأنها غير معلومة، ومما استأثر الله بعلمه.

فإطلاق لفظ المتشابه على الصفات محمول على معنى أن كيفية اتصاف المولى- تبارك وتعالى- بهذه الصفات مما استأثر سبحانه بعلمه، ولا سبيل للبشر إلى إدراكه، فهو من هذه الحيثية متشابه، أما معاني الصفات فإنها معلومة وليست من المتشابه.

فهذا هو منهج السلف في المتشابه وهذا هو فهمهم للمحكم والمتشابه الوارد في آية آل عمران، منهج يتسم بالدقة ويتسق مع اعتقادهم في التوحيد، لاسيما في توحيد الصفات، فهم لما آمنوا بصفات حقيقية جاءت بها الأدلة السمعية، وفرقوا بين فهم المعنى الذي حواه اللفظ العربي وفهم الكيفية، وفقوا في تفسير المحكم والمتشابه.

فإذا كان المحكم هو المعلوم الواضح المعنى، وكان المتشابه عكس المحكم وهو المجهول الذي لا يعلم – على نحو ما تقدم – فإنهم يعتبرون معاني نصوص الصفات محكمات، والكيفية الغيبية فقط من المتشابهات التي لا يعلمها إلا الله.

أما النصوص الأخرى غير نصوص الصفات من نصوص التكليف ونحوها فإن كان معنى النص معلوما والكيفية التي دل عليها معلومة ،كانت الآية محكمة لأهل العلم على تفاوتهم في المعرفة والفهم،كما هو الحال في جميع آيات الأحكام ، ولذلك سميت نصوص التكليف بما تحويه من أحكامٍ أحكاماً ، لوضوح معناها والعلم بكيفية أدائها .

هذا ما أطبقت كلمة الأئمة المتقدمين من سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، وهو أن ما ورد في باب الصفات من الآيات والأحاديث، ينبغي حمله على ظاهره، من غير تأويل أو تحريف أو تعطيل أو تمثيل؛ وأن ظاهرها لا يقتضي تمثيل الخالق بالمخلوق. فقد ثبت عن الإمام مالك أنه سئل عن الاستواء، فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

آيات الصفات عند الخلف:

الخلف هم من جاء بعد عصر السلف أي:بعد عصر القرون المفضلة ، وبدايته الحقيقية منذ سيطرة المعتزلة على الخلافة الإسلامية في عصر المأمون بن هارون الرشيد ، وإن كان ظهور المنهج الكلامي أسبق من ذلك ، إلا أنه لم يكن على مستوى الخلافة ، وأما تحديد وصفهم فهم الذين اتبعوا المنهج الكلامي وعلم المنطق ، واعتبروه أصلا يسيرون على نهجه ، وميزانا لقياس الأمور العقائدية ، وما عارض ذلك من نصوص الوحي جعلوها أدلة لفظية لا تفيد اليقين ، أو مجازاً أو استعارة لا حقيقة لها ، وأن العقل عارضها فيجب تقديمه عليها ، وأنها أخبار آحاد لا يجوز أن يحتج بها على أصولهم ، هذا الاتجاه هو ما عرف بمذهب الخلف قديماً وحديثاً.

ومن أبرز المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله لدى هؤلاء أعني علماء الخلف والمتكلمين، آيات الصفات الخبرية، أو متشابه الصفات، كالآيات التي جاء فيها ذكر صفات الذات والأفعال، مثل الوجه واليد والفوقية، والاستواء والمجيء والرضا والغضب وغير ذلك من الصفات الإلهية.

يقول ابن أبي العز شارح الطحاوية في وصف حالهم في باب الصفات: (يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات وما يخالفه إما أن يتأوله تأويلا يحرفون فيه الكلم عن مواضعه وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه فيجحدوا ما أنزله من معانيه) أهـ.

فمذهب الخلف في نصوص الصفات أنهم جعلوا المعنى المتبادر منها معنى باطلاً يدل على التشبيه والتجسيم وإثبات الجوارح والأعضاء، لأنهم صوَّروا الخالق في صورة المخلوق، ثم استقبحوا هذه الصورة

التي تخيلوها من دلالة النصوص، وأوجبوا تأويل المعنى أو تفويضه، كما قال اللقاني صاحب جوهرة التوحيد:

وكل نص أوهم التشبيها ..... أوله أو فوِّض ورم تنزيها

فتأويل الصفات عندهم أن يصرف لفظها عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به, وهذا ما ذكرناه مسبقاً من معاني التأويل الثلاثة ، وقد قصدوا بذلك تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون. وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه أو أشد، فهم حين يؤولون اليد بالقدرة مثلا إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يدا لأن للمخلوقين يدا، فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة، **والرد عليهم** أن ذلك تناقض منهم. لأنهم يلزمهم في المعنى الذي أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم في المعنى الذي نفوه، لأن العباد لهم قدرة أيضا. فإن كان ما أثبتوه من القدرة حقا ممكنا كان إثبات اليد لله حقا ممكنا أيضا، وإن كان إثبات اليد باطلا ممتنعا لما يلزمه من التشبيه في زعمهم كان إثبات القدرة باطلا ممتنعا كذلك.

وأما التفويض عندهم فهو القول بأن معنى النص مجهول ولا يعلمه أحد إلا الله وادعوا أن هذا مذهب السلف كمالك وغيره، والأمر ليس كذلك، فالسلف فوضوا العلم بالكيفية الغيبية إلى الله، أما المعنى فهو معلوم واضح من دلالة اللغة العربية التي نزل بها القرآن.

فالألفاظ التي نزل به القرآن، تحمل معاني معلومة واضحة الدلالة محكمة البيان، فهي محكمة غير متشابه ومعلومة غير مجهولة، والقول بتفويض معانيها عند ذلك عبث وقدح في البلاغ عن الله ، أما الحقائق والكيفيات الغيبية أو المشهودة التي دلت عليها النصوص والألفاظ ، فإن كان ذلك في حدود مدارك الإنسان ، فإن الكيفية محكمة أيضا غير مجهولة لأنها مرئية معلومة ، أما إن لم يكن ذلك في حدود مدارك الإنسان وإنما تتعلق في عالم الغيب ، فالكيفية من المتشابه المجهول الذي استأثر الله بعلمه ، والذي يجب الإيمان به ، والراسخون في العلم مهما بلغ علمهم فلن يدعي أحدهم أنه يعلم كيفية الحقائق في الغيبيات أو كيفية الذات والصفات ، فهذه عقيدة السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على طريقتهم إلى يوم الدين .

ثاني عشر: الحكمة من ورود المتشابه في القرآن الكريم:

أجاب عنه ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» فقال: إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار والإطالة والتوكيد، والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه

إلا اللَّقن (سريع الفهم) وإظهار بعضها، وضرب الأمثال لما خَفِيَ، ولو كان القرآن كله ظاهرًا مكشوفًا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لَبَطَلَ التفاضُلُ بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة. وقالوا: عَيْبُ الغِنَى أنه يورث البَلَه، وفضيلة الفقر أنه يبعث الحيلة. وقال «أكثم بن صَيْفيّ»: ما يَسُرُّني أني مَكفِيٌّ كل أمر الدنيا. قيل له: ولم ؟ قال: أكره عادة العجز.

وكل باب من أبواب العلم: من الفقه والحساب والفرائض والنحو، فمنه ما يَجِلُّ ومنه ما يَدِقُّ، ليرتقي المتعلم فيه رُتبةً بعد رتبة، حتى يبلغ منتهاه، ويُدركَ أقصاه، ولتكون للعالم فضيلةُ النظر، وحسنُ الاستخراج، ولتقع المثوبةُ من الله على حسن العناية، ولو كان كل فن من العلوم شيئًا واحدًا: لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خَفيٌّ ولا جَليٌّ لأن فضائل الأشياء تُعرف بأضدادها، فالخيرُ يُعرف بالشر، والنفعُ بالضرّ، والحلو بالمر، والقليلُ بالكثير، والصغيرُ بالكبير، والباطن بالظاهر. [تأويل مشكل القرآن ص٨٦- ٨٧].

ومن العلماء من قسم المتشابه إلى قسمين: ما يمكن معرفة المراد منه، وما لا يمكن معرفة المراد منه.

فالحكمة من الأول:

١- حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه.

٢- ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات إذ لو كان القرآن كله محكما لا يحتاج إلى تأويل لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره.

٣- الحصول على الثواب الأكبر، ذلك لأن المتشابه يوجب فهمه التعمق في العلوم.

والحكمة من الثاني وهو الذي لا يمكن علمه:

١- ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه، والتفويض والتسليم، والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ وإن لم يجز العمل بما فيه.

٢- إقامة الحجة على الناس جميعا بهذا الكتاب، الذي جاء بكل ما يتطلع إليه الناس أفرادا وجماعات سواء كان في العقيدة التي تنأى عن الخرافة والباطل، وتدعو إلى الإيمان بحقائق يدرك الناس بعضها ويعجز العقل البشري عن إدراك بعضها، أو كان في التشريع المتكامل أو في الحياة الروحية السامية التي أقامها بين الناس.

٣- إقامة الحجة على العرب البلغاء حيث نزل القرآن بلغتهم، ومع ذلك عجزوا عن الوقوف على معنى بعض الآيات، فدل ذلك على أنه منزل من عند الله تبارك وتعالى، والله أعلم.